من هدي السنة

للدكتور : على عبد المنعم عبد الحميد

روى البخارى بسنده المتصل عن عائشة رضى الله عنهـا أن بعض ازواج النبى صلى الله عليه وسلم قلن للنبى صلى الله عليه وسـلم : اينا اسرع بك لحوقا ؟ قال اطولكن يدا ، فاخذوا قصبة يذرعونها فكانت سودة اطولهن يدا ، فعلمنا بعد انما كانت طول يدهـا الصدقة ، وكانت اسرعنـا لحوقا به ، وكانت تحب الصدقة .

١ ــ كثرت الأحاديث الشريفة الحاثة على الصدقة ، كما ورد الحض عليها فى القرآن الكريم ، والصدقة تطلق شرعا على الزكاة المفروضة التى هى ركن من أركان الاسلام ، ومنكر وجوبها كافر لأنها ثابتة قطعا بالكتاب والسنة والاجماع وهى ماضية الى يوم يرث اللـه الأرض ومن عليها تصرف فى وجوهها المقررة شرعا ، ولا يقصر فى أدائها إلا عاص لله ولرسوله وسيكون له الجزاء الذى لا مناص له عنه والذى وردت الاشـارة اليه فى القـرآن الكريم قال الله تعالى : **« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعـذاب اليم • يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون »** الآيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة التوبة ، وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : « ما اديت زكاته فليس بكنز وان كان تحت سبع ارضين ، وكل ما لم تؤد زكاته فهو كنز وان كان فوق الأرض » وروى البخارى عن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبـد الله بن عمر رضى الله عنهما فقال اعرابى : اخبرنى عن قول الله تعـالى : **« والـذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله »** ــ قال ابن عمر : من كنزها فلم يؤد زكاتها فويل له ، انما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما انزلت جعلها الله طهرا للأموال وهذا مشعر ــ كما يقول الحافظ بن حجر العسقلانى ــ بأن الوعيد على الاكتناز وهو حبس ما فضل عن الحاجة عن المواساة به كان فى أول الاسلام ثم نسخ ذلك بفرض الزكاة ، وروى البخارى ايضا عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا اقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه ــ يعنى

شدقيه — ثم يقول : « أنا مالك ، أنا كنزك » — ثم تلا — « ولا يحسبن الذين يبخلون » .. الآية (١) ..

والحديث الشريف موضوع البحث يومىء الى صدقة التطوع وهى التى اشارت اليها الآية الكريمة : **« ان تبدو الصدقات فنعما هى وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير »** الآية (٢٧) من سورة البقرة . فقد ذهب الجمهور من المفسرين الى انها فى صدقة التطوع لأن الاخفاء فيها أفضل من الاظهار ، فذلك أدل على أنه يراد بها الله عز وجل وحده ، وان كان هذا لا يمنع من اظهارها لحمل الغير على الاقتداء بالباذلين المعروف عن الساعين فى الخير ، فينتهج نهجهم وينسج على منوالهم ليعم الخير والتراحم ويزداد التواد والتعاطف ، وتختفى الحاجة والمسألة ، وتأتلف القلوب ، ويتعاون الناس على البر والتقوى فالاحسان له أثره الفعال فى التجاذب والتقارب ، واجتثاث السخائم وقتل العداوات ، وبث روح الطمأنينة وتوطيد أواصر المحبة بين أفراد المجتمع ، وقد أدرك صحابة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المعانى من كثرة حثه عليه أفضل وأزكى السلام على الصدقات فكان بعضهم يعمل حمالا فى السوق ليحصل على القليل ويتصدق به رغبة فى امتثال الأوامر الشريفة ، روى البخارى عن أبى مسعود الأنصارى رضى الله عنه أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أمرنا بالصدقة انطلق أحدنا الى السوق فيحامل فيصيب المد — أى فى مقابل أجرته — فيتصدق به ، وكانوا لا يحقرون الصدقة مهما ضؤلت وقل مقدارها استنادا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » رواه البخارى . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « دخلت امرأة ومعها ابنتان لها تسأل ، فلم تجد عندى شيئا غير تمرة فأعطيتها اياها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها ثم قامت فخرجت .. الحديث « ومن تعاليم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبذل الانسان وهو صحيح معافى محب للمال ضنين به ولا يترك العطاء حتى تهجم عليه منيته وتفوته فرصة المبادرة الى الخير ، ففى بذل المال مع وجود الشح به برهان على قوة الرغبة فى القربات والمبادرة الى الامتثال والدخول فى الطاعة » فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أى الصدقة أعظم أجرا ؟ قال : « أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تهمل حتى اذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا » وغالبا ما تكون الصدقة من أهل الخير على ذوى الحاجة ولكن المعتمد هو نية المتصدق فلو وقعت صدقة فى غير موقعها لاستحق أجرها مع خلوص نيته لله تعالى وابتغاء مرضاته ، ولربما حصل منها الخير الكثير والجزاء الوفير ، وقد أورد البخارى حديثا عمن أسر صدقة فوقعت فى يد من ليس لها أهل ، فاعلم مناما بثوابها وأنها لاقت من الله قبولا فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال رجل لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق فأصبحوا يتحدثون تصدق (بالبناء للمجهول) على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد ، لأتصدق بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على زانية . فقال : اللهم لك الحمد على زانية ، لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنى ، فأصبحوا يتحدثون تصدق على غنى ، فقال : اللهم لك الحمد ، على سارق ، وعلى زانية ، وعلى غنى فأتى (بالبناء للمفعول) فقيل له : أما صدقتك على سارق ، فلعله يستعف عن سرقته ، وأما الزانية ، فلعلها أن تستعف عن

زناها ، وأما الغنى فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله » وفي رواية الطبراني : « فساءه ذلك فأتى فى منامه » قال العيني فى كتابه عمدة القارى : « وفيه دليل على أن الله يجزى العبد على حسب نيته فى الخير لأن هذا المتصدق لما قصد بصدقته وجه الله تعالى قبلت منه ولم يضره وضعها عند من لا يستحقها وهذا فى صدقة التطوع واما الزكاة فلا يجوز دفعها الى الأغنياء » ويؤخذ منه ايضا توقع حمل المتصدق عليه على التحول من الحال المذمومة الى الحال الممدوحة فيستعف السارق من سرقته والزانية من زناها والغنى من امساكه ، ويدل على بركة التسليم والرضا وذم التضجر بالقضاء ، وقد مدح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة السر فذكر من الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل الا ظله رجلا تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ففى ذلك خلوص الصدقة لوجه الله تعالى وحفظ ماء وجه المتصدق عليه وستره أمام العامة ، وخاصة اذا كان ممن عرفوا بالصلاح والتقوى أو من الذين اخنى عليهم الدهر بعد نعمة وثراء وكثير ما هم ، ومن ستر على مسلم فى الدنيا ستره الله فى الدنيا والآخرة .

٢ — فى توجيه هذا السؤال الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أزواجه ، دلالة على شدة تعلقهن به ، وخوفهن من البعد عنه ، ولهذا احببن الموت — وهو مبغض الى النفوس — لئلا يلبثن بعده في الدنيا التى لا تحتويه ، ولا تسعد بوجوده فيها ، فالحياة بدون سيدهن هباء والبقاء فيها ، بعده فناء ، ومما يشهد بتولهن برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفقدانهن الصبر على فراقه حادثة التخيير التى وردت اخبارها فى سورة الأحزاب وسجلت قرآنا يتلى الى يوم الدين ، قال تعالى : **« يايها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرحكن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله اعد للمحسنات منكن اجرا عظيما »** الآيتان ٢٨ ، ٢٩ ، قال المفسرون : أمره الله عز وجل أن يخير زوجاته فربما كان فيهن من تكره المقام معه على الشدة تنزيها له ، فقلن : اخترنا الله ورسوله ، روى البخارى ومسلم — واللفظ لمسلم — عن جابر بن عبد الله قال : دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم ، قال : فأذن لأبى بكر فدخل ، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له ، فوجد النبى صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه واجما ساكتا ، قال: فقال والله لأقولن شيئا اضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : يا رسول الله : لو رأيت بنت خارجة سألتنى النفقة ، فقمت اليها فوجأت عنقها ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « هن حولى كما ترى يسألننى النفقة » . فقام ابو بكر الى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر الى حفصة يجأ عنقها ، كلاهما يقول : تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده . . فقلن والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا شيئا ليس عنده . ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين ، ثم نزلت عليه هذه الآية : **« يايها النبى قل لأزواجك — حتى بلغ — للمحسنات منكن اجرا عظيما »** قال : فبدأ بعائشة ، فقال : يا عائشة ، انى أريد ان أعرض عليك أمرا احب الا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك . قالت : وما هو يا رسول الله ؟ فتلا عليها الآية . قالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبوى ؟. بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأسالك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت . قال : « لا تسألنى امرأة منهن الا اخبرتها ، ان الله لم يبعثنى معنتا ولا متعنتا ولكن بعثنى معلما ميسرا » وفعلت زوجات النبى صلى الله عليه وسلم مثل

ما فعلت عائشة . وهكذا لم تطب نفوسهن رضوان الله عليهن أن يفارقنه رغبة في صحبته التي لا تعادل لها الدنيا وما فيها وأملا بالبقاء معه ليكون لهن الجزاء الأوفى عند رب العالمين سبحانه ، ويفزن بمصاحبة رسول الله في جنات النعيم ، ولشدة ركونهن اليه كن يسألنه عن صاحبة الحظ الأوفى التي ستكون اولهن لحوقا به بعد موته ، وقد فهمن من طول اليد ظاهر القول فأخذن يقسن أيديهن بالقصبة وغيرها ، وفي هذا تقول عائشة : « فكنا اذا اجتمعنا في بيت احدانا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم نمد أيدينا في الجدار نتطاول فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش وكانت امرأة قصيرة ولم تكن أطولنا فعرفنا حينذاك أن النبي صلى الله عليه وسلم انما أراد بطول اليد الصدقة وكانت زينب امرأة صناعة اليد ، وكانت تدبغ وتخرز وتتصدق في سبيل الله » .. قال الحاكم حديث صحيح على شرط مسلم ، وكن رضوان الله عليهن قد فهمن أن المراد الطول الحقيقي المادي ويبدو أن سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس العامرية ـ كانت أطولهن يدا على الحقيقة ـ وكانت من السابقات في الاسلام وهي أول من تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خديجة وكان قد توفي زوجها السكران بن عمرو العامري بعد عودتها من الحبشة حيث كانت قد هاجرت معه اليها الهجرة الأولى ، وقيل كان قد مات بالحبشة ،وقد توفيت بالمدينة في شوال سنة أربع وخمسين من الهجرة الكبرى ، وأما زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية فقد توفيت سنة عشرين من الهجرة ، فكانت اول انسانة لحوقا به صلى الله عليه وسلم ، وما ورد في صلب الحديث من أن سودة كانت أسرعهن لحوقا به صلى الله عليه وسلم فهو من دخول الوهم على الراوي في التسمية كما قال محققو الحديث الشريف رضوان الله عليهم ، وهذا الحديث علم من أعلام النبوة ، وفيه جواز اطلاق الألفاظ المشتركة بين الحقيقة والمجاز بغير قرينة وهو هنا لفظ أطولكن يدا ، ولما كان السؤال عن الآجال وعلم نهايتها عند علام الغيوب وحده ولا يعلم ذلك الا بوحي أجابهن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلفظ غير صريح لا يتبين الا في آخر الوقت عند حدوثه فعلا ولهذا لم يفهمن أن المراد بطول اليد الصدقة الا عند موت أم المؤمنين زينب بنت جحش أولهن بعد رسول الله وكانت رضوان الله عليها أكثرهن تصدقا ، اذ كانت كما مر صناع اليد تعمل بيدها وتتصدق ، وفضل الصدقة صدقة التطوع وآثارها الحسنة في المجتمع الانساني مما لا تفي به سطوره ، وما أكثر ما حث عليها القرآن الكريم والسنة الشريفة وبرزت واضحة جلية في فعله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان أجود بالخير من الريح المرسلة ، واقتدى به أصحابه في البذل والعطاء مما حفلت به سيرهم عليهم جميعا رضوان الله وسلامه ، والسعيد الموفق من نسج على منوالهم وسار في دروبهم واقتدى بفعالهم فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليلا ، ما عندكم ينفد وما عند الله باق ، وليكن ختام هذا البحث قول الله تبارك وتعالى :

« مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » .

---

(١) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران ونصها :

« ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والارض والله بما تعملون خبير » .